كريمًا ومن لا يقتنيها يقي حيوانًا بهيمًا مهما يكن شعار طريقته وأيًّا كان شعار حقيقته

وخلاصة القول ان الامور التي يشترك فيها ارتقاء الاحياء وتقدُّم العمران ثلاثة . الاول تقدم من صور قليلة مشتركة غير معينة الحدود الى صور كثيرة معينتها . الثاني استعداد مستمر في الحي وجسم الاجتماع للمحيط المرتقي . الثالث تكامل متواصل في المرتقي يتقدم به من مبدإ التفرُّق والانفراد الى الانضمام والاتحاد بين اجزاء المركَّب حتى يبلغ بناء واحدًا متلاحم الاجزاء

متري قندلفت

وصية فؤاد باشا

ازدان تاريخ الدولة العثمانية في القرن الماضي بذكر اربعة رجال عظام كان كلٌّ منهم نبراس الفضل ومصباح الهدى يؤتمُّ به ويقتدى عند تفاقم الخطوب واشتداد الاخطار "كأنهُ علم في رأسهِ نار" وهم رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا . كانوا دعاة الاصلاح وحماة الدولة وسياج السلطنة واركان عزها ومجدها . وقفوا حياتهم على خدمة الدولة والامة والوطن . وكانوا خير مثال يقتدى بهِ في الدفاع المجيد والسعي الحميد والجهاد الحسن

اما احدهم فؤاد باشا فقد قضى سنين طويلة في منصبي الصدارة ونظارة الخارجية على التعاقب واليهِ ينسب الفضل في صدور الامر السمي "خط همايوني" سنة ١٨٥٦ القاضي بوجوب مساواة رعايا الدولة العلية على اختلاف اجناسهم ومذاهبهم في الحقوق والامتيازات . ولهُ الوصية المشهورة التي رفعها قبل موتهِ بيوم واحد الى السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٩ وقد اطلعنا على ترجمة لها في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية فعرَّبناها في ما يلي ليسمع منها القراء صوتًا صارخًا من القبر يرنُّ في المسامع والآذان . ويسوق الى صاحبهِ الرحمة والرضوان من كل شفة ولسان

قال المرحوم فؤاد باشا : — "مولاي . لم يبقَ لي في هذه الحياة سوى بضعة ايام وربما بضع ساعات فاردت ان اقضي هذه الدقائق الاخيرة في اتمام فرض مقدس واعرض على جلالتكم افكاري الاخيرة المنعمة عمًّا واسفًا على سوء المصير الذي انتهت اليهِ الدولة بعد التمادي في سياسة الخرق والطيش . وعند ما تبلغ كلماتي مسامع جلالتكم اكون قد فارقت هذا العالم فتصغون اليَّ من غير ان يداخلكم ارتياب في حسن قصدي لان الصوت الذي يتكلم من القبر يتكلم بصدق واخلاص

ان الله قد استودعكم عملاً فيهِ من الخطر بقدر ما فيهِ من المجد والشرف فلكي تقوموا بهِ حق القيام ينبغي ان تدركوا هذه الحقيقة المؤلمة وهي ان السلطنة العثمانية في خطر . فان التقدم السريع الذي احرزهُ جيرانُنا والغلطات العظيمة التي ارتكبها اسلافنا اوصلتنا اليوم الى موقف حرج الى الغاية فيلزم جلالتكم والحالة هذه ان تخلعوا العتيق وتنهجوا بالدولة منهجاً جديداً تأمن بهِ المعاثر والمزالق وتنجو من المخاطر والبوائق

يحاول بعض الجهلاء ان يقنعوا جلالتكم بان وسائطنا الحاضرة تكفينا لاسترداد مجدنا الغابر وعزنا الدابر فيالهُ من خطاء فاضح وغرور فادح ! فلو كان جيراننا باقين في الوقت الحاضر على ما كانوا عليهِ في عهد آبائنا لما تعذر على جلالتكم ان تبلغوا شأو اجدادكم وتخضعوا ملوك اوربا لسلطانكم ولكن جيراننا تقدموا كثيراً عما كانوا عليهِ منذ قرنين . وقد سبقونا بمراحل وتركونا وراءهم ولم يكن تقدمنا اليسير في جنب تقدمهم الكثير شيئاً مذكوراً

لا أُنكر ان الدولة ارقى في عهد جلالتكم كثيراً منها في عهد اسلافكم لكن هذا التقدم النسبي اقلُّ من ان يفي بحاجات الزمن الحاضر . قد تكونون يا مولاي من حيث القوة والعظمة كاسلافكم وربما استطعتم ان تفوقوهم في ذلك لكن هذا لا يكفيكم في طلب المحافظة على مركزكم في اوربا بل يجب ان تكونوا عند الحاجة قادرين على مضاهاة جيرانكم والاستخفاف بهم . وبعبارة اخرى ينبغي ان تكون سلطنتكم كانكلترا في الغنى وفرنسا في المعرفة وروسيا في الجيش والاَّ فهي في خطر السقوط العاجل والخراب القريب

وليست مسألتنا الآن محصورة في الحصول على التقدم السريع بل في جعل تقدمنا مساوياً لتقدم الامم الاوربية . ولكم يا مولاي في سلطنتكم جميع الاسباب والوسائط التي تمكّنكم من جعل الدولة في مقدمة دول اوربا كلها ولكن الحصول على هذه النتيجة يقضي بتغيير كل قوانيننا السياسية والمدنية . لان كثيراً منها كان مفيداً جداً في الماضي واصبح مضرّاً في الوقت الحاضر

ولما كان الانسان قادراً على التقدم الى الكمال وجبت عليهِ مداومة السعي في تحسين شؤونهِ وترقية احوالهِ . وهذه السنَّة الطبيعيَّة تطابق لحسن الحظ كنه ديانتنا الاسلامية فالاسلام يتضمن كل التعاليم الصادقة التي من اسمى مقاصدها تقدم العالم وارتفاع منار الانسانية . واما الذين يدّعون ان ديننا يعارض تقدم دولتنا فهم ليسوا مسلمين صادقين . ولكل دينٍ قواعد وعقائد تحول دون تثقيف العقول واثارة الاذهان ما عدا الاسلام فانهُ مطلقٌ من هذه القيود ومما يفرضهُ على تابعيهِ ان يجاروا العالم في التقدم ويبذلوا جهدهم في ترقية القوى العقليَّة ويطلبوا العلم والمعرفة ليس في بلاد العرب وبين المسلمين فقط بل في البلدان الاجنبية

حتى في الصين وفي اقاصي الارض ايضاً

لا يتوهم احد ان العلم الاسلامي يختلف عن علوم بقية الامم فالعلم واحد في كل مكان. وشمسهُ التي تنير العالم العقلي هي واحدة. والاسلام هو حسب اعتقادنا مجلى كل حقيقة ومظهر كل علم. فكل اكتشاف مفيد وتقدم جديد في كل مكان وبين اية امة كانت انما هو للمسلمين. وبناء عليه لا شيء يحول دون اقتباسنا ما جد عند الاوربيين من القواعد والقوانين. ولقد تضلعت من ديانتنا تضلعاً قدَّرني على فهم كنهها وادراك حقائقها ولست بجاهل اهمية الغرض الذي ارمي اليه وابني كلامي عليه. وما كانت نفسي لتسول لي أن أخون سلطاني ووطني ومذهبي في الدقيقة الاخيرة من حياتي عند استعدادي لمفارقة العالم والوقوف في حضرة الديان العادل

فجملة الثقة والاقتناع اقول انهُ ليس بين جميع القوانين الجديدة التي تعرضها اوربا علينا قانون واحد ينافي روح ديانتنا على الاطلاق. وبكل إخلاص اصرّح بأن خلاص الاسلام يقتضي المبادرة الى قبول هذه القوانين التي لا مندوحة عنها لامة تروم حفظ كيانها وسلامتها من الثلاثي. وأصرّح ايضاً بان جلالتكم اذا اقدمتم على هذا التغيير الضروري الذي لا يخالف شيئاً من مبادىء ديانتنا المقدسة خدمتم المسلمين اعظم خدمة مشروعة ونفعتموهم نفعاً لم يخطر قط ببال احد من اسلافكم العظام. وهذا العمل العظيم يستغرق عدة مسائل ولم يبقَ لي في هذا العالم من القوة والوقت ما يمكنني من التأمل فيها. ولكنكم قادرون يا مولاي اذا شئتم ان تنتفعوا بخدمة ذلك الرجل العظيم الذي أتيح لي ان اكون صديقهُ ومشيرهُ. واني اسأل الله ان يطيل بقاءهُ لجلالتكم لانهُ أعرف من غيره بوسائط خلاص السلطنة. ولم أشر قط بشيء على جلالتكم الاَّ بعد الوقوف على رأيه فيه واستحسانه لهُ. فمكنوهُ من ثقتكم التامة لان ثقة السلطان تشدّد ساعد الوزير. والتمس من جلالتكم فوق كل شيء ان تؤيدوا هذا الخادم الامين الذي لا غنى لكم عن حذقه وذكائه وفطنته ودرايته ولا تدعوا جهل زملائه يثبط عزيمتهُ ويضعف همتهُ. ولا شيء يوهن عزمهُ اكثر من اضطراره الى العمل مع من لا يستطيعون ان يدركوا افكارهُ ويفهموا مقاصدهُ

اما من جهة علاقاتنا الخارجية فلما كنا غير قادرين على محاربة اعدائنا وجب علينا ان نستعين بمصادقة الاجانب ومحالفتهم. ولاجل حماية حقوقنا يترتب علينا ان نبدي من القوة والحذق والشجاعة اكثر جداً مما ابدى اسلافنا في اخضاع الشعوب وتدويخ الممالك واذا بحثتم عن حلفائنا الاجانب وجدتم انكلترا على الدوام في مقدمتهم. وسياستها وصداقتها متينتان

كقوانينها . وقد خدمتنا في الماضي خدمات جليلة ولا يسعنا الاستغناء عن مساعدتها لنا في المستقبل . ومهما تقلبت الاحوال فالشعب الانكليزي الذي هو اعجب شعوب العالم واجدرهم بالثقة والاعتماد يكون اول حلفائنا وآخرهم ولو خُيِّرتُ لاخترتُ خسارة الباب العالي عدة مقاطعات على خسارته صداقة انكلترا

اما فرنسا فخليفة لنا يجب ان نعاملها دائمًا بما نستطيعهُ من التجلة والاحترام ليس لانها قادرة ان تمدنا باعظم مساعدة فقط بل لانها تستطيع ايضًا ان توقع بنا اكبر ضرر. ولها شغف بالعظمة ولو رأيتها في اعدائها . فاحسن وسيلة لحفظ صداقة هذا الشعب الكريم ان نجاريهُ على افكارهِ وتصوراتهِ ونبدي ما يوافقهُ من هذا القبيل. واذا اعرضت فرنسا عنا يومًا ما وجاهرت بعداوتنا كانت من الاسباب المتممة لخرابنا

اما النمسا فقد شغلتها مصالحها الاوربية عن المداخلة في المسألة الشرقية . وارتكبت غلطة كبيرة في حرب القرم وسترى في المستقبل الخطر الذي ينقضُّ عليها من الشمال ويكون شديدًا عليها كما يكون علينا نحن ايضًا . وستبقى حكومة فينًا حليفة طبيعية للباب العالي ما دامت ناهجة في سياستها منهج الحكمة والسداد ولا يمكن صد تيار الشر العظيم الذي انهال على الشرق منذ اكثر من قرن الاَّ بمعونة النمسا ومضافرة حلفائنا في الشرق

اما بروسيا فقد ظلت الى هذا الوقت غير مكترثة للمسألة الشرقية ومن الممكن ان سياستها تقضي عليها بتضحيتنا في سبيل مشروع الاتحاد الالماني وبعد حصول هذا الاتحاد لا تلبث المانيا ان ترى لها في المسألة الشرقية ما ليقية الدول من المصالح وعسى ان لا تكون نتيجة سياستها في النمسا الزام اعدائنا امتلاك بلادنا الاوربية

اما روسيا فهي عدوة دولتنا الطبيعية وامتدادها في الشرق من جملة مبادئها الاساسية . ولو كنت وزيرًا روسيًّا لما تركت شيئًا يحول دون تدويخ الاستانة . فلا تعجب اذًا ولا تشكو من جفائها وعدائها وهي تعاملنا الآن كما كنا نحن سابقًا نعامل اليونان. ومن اسخف الامور ان نعتمد في صد غاراتها عنا على مجرد حقوقنا اذًا نحتاج الى القوة ولكن ليس القوة التي استخدمناها قديمًا وانقضى امرها ولا فائدة من محاولة احيائها بل القوة الجديدة التي تسلَّح بها شعوب اوربا بواسطة العلوم والمبادىء الحديثة . ان روسيا لم تعد كما كانت في عهد بطرس الاكبر بل خطت خطوات مهمة في سبيل التقدم وعما قليل تزداد قوتها عشرة اضعاف بواسطة سككها الحديديَّة . ومما يخيفني على الخصوص ان اكثر امم اوربا راضٍ من الآن بما تقصدهُ روسيا من الاعتداء على غيرها

ومما يدهشني ايضاً ويخيفني عدم اهتمام انكلترا باحوال اواسط اسيا ويزيد خوفي ودهشتي حينما ارى التغيير العظيم الذي حدث في موقف روسيا على اثر زوال القلاقن من ولايات القوقاس. وعندي ان روسيا ستصوّب غاراتها في المستقبل على املاكنا في اسيا الصغرى فمن الضروري ان لا نكفّ عن التأهب والاستعداد لاننا لا ندري هل يكون حلفاؤنا مستعدين على الدوام للمبادرة الى مساعدتنا عند ما تمس الحاجة. فقد يحدث شيء في اوربا يغل ايديهم ويشغلهم عنا

وعند ما اراجع في ذهني الغلطات التي ترتكبها حكومات اوربا لا ارى اعظم من غلطتها في سياحها لاعظم دولة مستبدة في العالم ان تتألف من مئة مليون وتتسلح بكل معدات التمدن وتفتح فاها لابتلاع الممالك والبلدان. وهي تغشى اسيا بالجيوش وتزعزع اركان اوربا بالنهضة السلافية وتقدم على الفتح والتدويخ بحجة محبتها للسلام وعدم رغبتها في تغيير الحالة الحاضرة

ولقد حدا بي ذكر روسيا الى الكلام على ايران ولو بالايجاز. فحكومة هذه البلاد كانت على الدوام منقادة بعامل التعصب الشيعي الى محالفة اعدائنا. وقد سوّلت لها نفسها في حرب القرم ان تظاهر روسيا علينا ولكنّ رياح السياسة الشرقية هبّت على خلاف مشتهاها وحالت دون تحقيق مناها. وعرش الشاه معتمد في الوقت الحاضر على الوزارة الروسية على ان حكومته بالغة غاية الضعف والجهل والفقر فلا تستطيع مبادأتنا بالشر والعداء ما دمنا مطلقي الايدي من المشاكل والعراقيل. ولكن متى نشبت الحرب بيننا وبين روسيا ضمت الينا ايران في مقدمة اعدائنا بالرغم عن شدة حذرنا منها مدفوعة بعامل استقلالها السياسي وغيرتها العمياء لكن الباب العالي لحسن حظه يأمن جانبها بما لديه من القوة المادية وهو قادر ايضاً ان يستعين بالوسائط الادبية على ارهاب حكومة تزعزع اركانها الاستبداد وكثرة الطامعين اليها وهي محاطة باهل السنّة من كل جانب

ولا يجوز ان ننسى اليونان فهي لا شأن لها في ذاتها ولكنها آلة في يد دولة معادية لنا تستخدمها لتعكير مائنا وتكدير صفائنا. وكأن الشعراء الاوربيين انشأوا هذه المملكة في عالم الخيال لينشروا بها امة طواها الدهر منذ اكثر من الفي سنة. حاولوا احياء بلاد هوميروس وارسطوطاليس فانشأوا مستقر الدسائس والفوضى وقد يبقى اليونان زمناً طويلاً مستعزين بما كان لهم من المجد السالف ولو كانوا قد ابتعدوا عنهُ منذ قرون كثيرة ساد فيها الفساد والجهل ويحاولون اعادة مملكتهم الشرقية لكن اغترارهم بانفسهم وانفصالهم عن غيرهم يكرّهان الامم الشرقية بهم. وقد يسهل على الباب العالي ان يجد بعض الخدام الاذكياء بين اليونان ولكن روح الجنس اليوناني سيبقى على الدوام مضادّاً لمصلحتنا. فمصلحتنا السياسية تقضي علينا بذل

الجهد في ابعاد اليونان عن باقي المسيحيين الذين في سلطنتنا وفصل البلغار عن سلطة الكنيسة اليونانية ومنع اتصالهم بالكنيسة الروسية او البابوية

وعلى الباب العالي ان يمنع كل دسيسة يراد بها ضم الارمن الى الكنيسة الارثوذكسية . وليكن سعينا لخير المسيحيين مقصوراً على محاولة تحريرهم من سلطة الاكليرس . وافضل سياسة يجب علينا اتباعها هي ان تجعل الحكومة فوق كل مداخلة في المسائل الدينية

اما من جهة امورنا الداخلية فعلينا ان نوجه اهتمامنا الى ادراك غرض واحد وهو مزج شعوبنا بعضهم ببعض ولا سبيل الى وحدة سلطنتنا بغير هذه الواسطة . لا ينبغي ان تكون هذه السلطنة العظيمة يونانية او سلافية ولا لهذه الطائفة او ذلك الجنس لانها انما تقوم باتحاد شعوبها وامتزاج اجناسهم

والبقاء مضمون لدولة مثل المانيا او لامة مثل فرنسا عددها ٤٠ مليون نفس او لبلاد مثل انكلترا عززتها الطبيعة بامنع الحصون اما الجبل الاسود والسرب وارمينية وغيرها من الولايات التي ليس لها شيء من الامتياز الخاص او النفع العام فاذا وجدت كانت عبارة عن حكومات خيالية او بقايا دول من سالف الامد وقد اخفى عليها الذي اخفى على لبد وغادرها فرائس لكل فاتح جديد او حجر عثرة في تقدم الانسان وخطراً على السلم العام

وأصوب رأي يعوّل عليه الآن في تنظيم الحكومات الحاضرة هو جمع القوة بواسطة المزج والتأليف بين العناصر المختلفة . فافضل وسيلة لدرء الخراب عن حكومتنا تجديد نظامها على اساس متين يجمع العناصر المتفرقة بلا تمييز في الجنس او المذهب . ويربطها كلها برباط المساواة . ومعلوم ان هذا المبدأ يقضي بترشيح رعايانا المسيحيين للوظائف العمومية وفي هذا ما فيه من الصعوبة لانهم اذا فتح لهم هذا الباب الذي كان مغلقاً في وجوههم اندفعوا منه بملء العزم والحمية وحاولوا سبق الذين تقدموهم من قبل . وهذا الطموح ابداه الارمن على الخصوص فمن الحكمة ان تتداركه بما يجعل الباب مفتوحاً فقط للرجال الاكفاء الذين يقبلون مبدأ وحدة السلطنة ويعملون بموجبه

ان ديانة رعايانا المسيحيين مؤسسة في الغالب على مبدأين احدهما ادبي والآخر سياسي . وعلى حكومتنا ان تغض النظر عن مبدإهم الادبي وتتجاهله على الاطلاق وتوجه عنايتها الى مراقبة مبدإهم السياسي بعين الحذر والانتباه فلا نبالي بكيفية عبادة احد رجال حكومتنا لله سواء عبده حسب ناموس موسى او بموجب شريعة عيسى اذ ليس في ذلك ما يقضي بحرماننا الانتفاع بخدمته . ولكننا اذا وجدناه لا يسعى لوحدة السلطنة وعلمنا انه يعلل نفسه بانشاء

امبراطورية بيزنطية ثانية او يخدم مصلحة دولة اجنبية وجب علينا عزله حالاً لانهُ خائن للدولة والامة

ووحدة الحكومة والبلاد قائمة على اساس المساواة . والمساواة هي القاعدة الوحيدة التي اطلب من كل موظف عمومي ان يجري عليها . وعلى جلالتكم ان تسعوا اولاً في توطيد اركان العدل حتى تظهروا عظم اهمية هذه القاعدة المفيدة . ولا اجهل ان هذا السعي وعث المسالك صعب المراس ولكن لا بد منهُ ولا غنى عنهُ . وبعد ما تضمنون لرعايانا سلامة حياتهم واموالهم يجب عليكم ان تهتموا بانشاء السكك . وحينما يصير عندنا من سكك الحديد قدر ما عند الدول الاوربية تكون دولتنا اول دولة في العالم . وهنا مسألة لا يجوز الاغضاء عنها لانها شديدة الاهمية اعني مسألة المعارف العمومية التي هي اساس كل ترقٍّ عمومي وبغيرها لا يرجى الحصول على عظمة ادبية او مادية . وهي تشمل الجيش والبحرية والادارة والاَّ فلا قوَّة لنا ولا استقلال ولا حكومة ولا مستقبل . ان التعليم في بلادنا لم يزل منحطًّا لاسباب مختلفة مع ان روح ديانتنا يأمر بترقيتهِ وتعميمهِ ومدارسنا الكثيرة التي استغرقت نفقات باهظة اعدَّت لنا مع قلة فائدتها اهم مبادىء التعليم العمومي ولم اتمكن من انفاذ هذا المشروع لاني كنت على الدوام مشغولاً عنهُ بالمشاكل الخارجية . فاتركهُ لخلفائي واؤكد لهم انهُ اعظم المشروعات اهمية وفائدة . وليس بخافٍ عليَّ ان بعض المسلمين سيكفرونني ويعدونني عدو الدين ولكنني اعفو عنهم لعلمي انهم لا يفهمون كلامي ولا يدركون افكاري . وسيأتي يوم يتحققون فيهِ اني انا المصلح الكافر كنت اصدق عقيدة واصحّ اسلاماً من كل اولئك الاغرار الذين صبوا عليَّ جام اللعنات وصوَّبوا اليَّ سهام الاهانات . سيعلمون ولكن بعد فوات الوقت اني جاهدت اكثر من كل شهيد آخر في سبيل حكومتهم وديانتهم اللتين عرضوهما للسقوط والانحطاط . ان الناموس الاول لكل نظام الهيًّا كان او انسانيًّا هو ناموس الحفظ الذاتي افلم يكن حفظ الاسلام غرضي الوحيد من كل اصلاح ابتغيتهُ . ولم اتذرع الى ذلك بالتعصب الاعمى والتحزب الباطل بل بالطرق التي وضعها الله الاسلام امامنا كما وضعها امام كل امةٍ اخرى في العالم

ان يدي الضعيفة المضطربة لم تعد قادرة على الكتابة فاقف عند هذا الحدّ والتمس في الختام من جلالتكم ان توجهوا التفاتكم الى الكلمات الاخيرة التي فاه بها هذا الخادم المنكود الحظ الذي كان بالرغم عن كل ضعفٍ بشريّ محبًّا لبني جنسهِ وباذلاً اقصى جهدهِ في ما يعود عليهم بالنفع والآن يفارق العالم غير آسفٍ عليهِ ويموت مسلماً عالماً لاحكام القدر ومسلماً نفسهُ للديان العظيم الرحمن الرحيم

فؤاد